نكبة فلسطين
في الرواية العربية المعاصرة

بقلم صبري حافظ

الحديث عن الاصول التاريخية للنكبة الفلسطينية متشعب الجذور، وقد يدفعنا الغوص في متاهته الى الانصراف عن مخططنا الرئيسي الذي اعددناه لهذه الدراسة ... ان التاريخ الانساني لم يحمل لنا عبر اكثر عصوره ضراوة وبداءة وهمجية ، نكبة اشد مأساوية من نكبة فلسطين، ولم تعرف ايضا مأساة اشترك العالم باكمله في صياغة احداثها قبل النكبة الفلسطينية التي شارك العالم كله في تشكيل ابعادها ،وساهمت بلدانه المتخضرة ، كل بقدر ، في وضع لمساتها الاخيرة . فمما لا شك فيه اننا لا نستطيع ان نبرىء اي جزء من العالم من المشاركة في صياغة احداث هذه المأساة البشرية الضارية ، والتي وقعت تحت سمع العالم وبصره في منتصف القرن العشرين ... القرن المثقل ضميريا بعشرات المآسي ... مأساة ملايين البسطاء الذين تركوا ابناءهم نياما، وخرجوا في منتصف الليل ليقاتلوا في حربين عالميتين ولم يعودوا ... وعشرات الالاف من الادميين الذين اكلت الكائنات الصغيرة اللامرئية اجسادهم فخرجوا من تحت انقاض هيروشيما مشوهين ... هذا غير الذين لم يخرجوا ... وملايين الباحثين عن الطعام عبر ثورات الجوع المختلفة التي اجتاحت وجه هذا القرن ، واكثر من مليون انسان وطفل يطردون من بلدهم فلسطين ، ليرضعوا طوال خمسة عشر عاما ،الكراهية، والظلم ، وحلم العودة .. وعشرات الملايين من الذين لا يحصلون على حقوقهم الانسانية لان بشرتهم جاءت داكنة اكثر مما ينبغي .. و ... و ... وعشرات المآسي والاحداث التي تثقل ضمير قرننا . ولكن اي واحدة من هذه المآسي لم تبلغ ما بلغته المأساة الفلسطينية من ضراوة ولا انسانية ، تلك المأساة التي اثقلت ضمير عصرنا باكمله خلال السنوات العشرين الاخيرة . ومنذ بدأت اولى اعتداءات ((الهاجانا)) على الاهالي الوادعين في فلسطين ، حتى اليوم .. وغدا .. وبعد غد ، تمتد احداث اكبر مأساة بشرية يعيشها عصرنا .

والتحدي الوحيد الذي يقدمه اكداس اللاجئين الفلسطينيين اليوم هو تحدي المتسول ... تحدي الارقام الرهيبة التي تمتلىء بها سجلات وكالة الغوث ، السجلات التي يتحول فيها الانسان الى رقم .. الى شحاذ .. الى متسول .. فيقدم بذلك تحديا اكثر ضراوة من ذلك التحدي الذي تمتد به يد المتسول المبتورة لتجبرك على ان تدفع القرش ضريبة عن يدك السليمة ، لانه تحدي انسان فقد وطنه، انسان يجسد الضياع والجذور المنبتة واللاامل . وهذا التحدي ليس وليد موقف استسلامي او هروبي من الحياة ، ولكنه نتيجة صراع دام ويائس في الوقت نفسه ، صراع فقد فيه الانسان كرامته الانسانية ومن ثم اصبح عاجزا عن صنع شيء ، بعد ان تآكلت كرامته بين فكي الظروف القاتلة ، وبقي هو مجردا من كل شيء ، ومكدسا بالعشرات في خيام وكالة الغوث الممزقة في انتظار ان تدر اليد المبتورة خبزا يقدمه مبنى الوكالة الانيق . هذا هو التحدي الوحيد الذي يقدمه اللاجيء الفلسطيني اليوم ، تحدي انسان بلا كرامة لانه بلا وطن ، تحدي انسان تبددت كل قدراته الانسانية في صحراوات الضياع واللاامل ومن ثم اصبح عاجزا عن صنع شيء .. حتى صياغة مأساته فنا ... ولكن من المسؤول عن هذا ؟! .. اللاجيء الفلسطيني نفسه اولا واخيرا ، لقد فقد اللاجئون الشكل المجتمعي وتركوا وطنهم ليذوب نهائيا تحت ابصارهم الكليلة التي اعيتها الرغبة في العودة ، واكتسبوا بدلا منه شكلا تكدسيا جديدا ليس فيه باي حال ذرة من الانسانية ، وراحوا يستمرئون اناشيد العودة ، ويقابلون تسويفات هيئة الامم باستسلام مذل مرير ، بينما تحولت قضيتهم الى ورقة سياسية رابحة واكيدة المفعول في يد كل الحكومات العربية المتعاقبة (1) ، وظلوا هم طوال الستة عشر عاما الماضية شاهدا داميا على ضراوة المأساة الفلسطينية ... يتلقفون فتات المعونات الامريكية ، ويمضغون في صمت ، مع كل لقيماتهم الذليلة ، حلم العودة . بينما الجزائر على بعد خطوات منهم تقدم حلا من نوع اخر لمأساتها ، حلا ايجابيا فعالا ما يلبث ان يستدعي النصر .

***

وتركت سلبية التحدي هذه ظلالها على كل ملامح النكبة الفلسطينية، واستطاع العجز عن فعل اي شيء ان يعلن عن نفسه عبر كل سمة من سماتها . ومن اهم السمات التي تهمنا في هذه الدراسة والتي تستلفت النظر بحدة ، ان مأساة فلسطين لم تعط ادبا يتناسب مع اعماقها الثرية بالاسى ، وبالتالي لم تستطع هذه النكبة ان تطرح نفسها عالميا بالقدر الذي يتناسب مع تغلغلها الدامي في اعماق الضمير الانساني . ولم تتمكن من الوقوف بصلابة في وجه دوامات الدعاية الصهيونية المجنونة ، لانها لم تنجب فنا يتناسب مع اعماقها الثرية بالاسى ، بينما راح سعار الدعايات الصهيونية المجنونة يلتهم كل شيء ويطمس كل معالم المأساة . هذه الحقيقة الدامية تستلفت نظر اي باحث في الادب العربي .

فرغم ان نكبة الاحتلال النازي لفرنسا لم تستغرق سوى بضعة شهور ، الا ان الشعب الفرنسي قد استطاع ان يكتب خلال هذه النكبة صفحات شرف رائعة لانسان عصرنا ، اذ استطاع بجدارة وعبر جهوده المتعددة ان يستدعي النصر ، صحيح ان الظروف العالمية ساهمت الى درجة كبيرة في تحقيق هذا النصر ، الا ان الشعب الفرنسي استطاع ان يصوغ مأساته فنا استنهض الهمم للالتفاف حول فرق المقاومة ومؤازرة جهودها ، فظهرت كتابات فيركور واراجون وسارتر والزا تريوليه وبول ايلوار ، ورسوم بيكاسو وفيركور ، ومطبوعات منتصف الليل ، وغيرها . ظهرت كلها لتحمل خلال كلماتها زخم المأساة الفرنسية ، ولتستحث الشعب الفرنسي على المقاومة حتى ينقذ باريسه المقرورة الجائعة التي لم تعد تأكل القسطل في الشوارع ـ على حد تعبير

(1) نأمل ان تؤدي مقررات مؤتمر القمة الى تذويب كل اخطاء الماضي وبعث الكيان الفلسطيني، والخروج بالقضية الى مجال اكثر رحابة وايجابية .

ايلوار – والتي فقدت وجهها السلامي الفرح لتراقبي وجها كئيبا ذليلا منذ ان صحت ذات يوم لتجد نفسها جائية تحت اقدام هتلر .واستطاع هذا الادب ان يقوم بدور فعال لتحقيق النصر لباريس ... باريس بودلير وبلزاك وزولا .

واستطاعت مأساة الشعب الجزائري ان تطرح نفسها بقوة خلال كتابات مالك حداد ومولود فرعون ومولود معمري ومحمد ديب ودريس الشرايبي وغيرهم (٢) ، تلك الكتابات التي حملت للعالم مأساة الاحتلال الفرنسي للجزائر واكدت له خرافية الراي القائل بان الجزائر فرنسية ، خلال تعميقها للروح القومية وللحس الجزائري مما حقق النصر للجزائر ، جزائر مالك حداد ومحمد ديب ودريس الشرايبي. كذلك استطاعت مأساة الحرب الاهلية الاسبانية ان تهز ضمير العالم ، وان تعطي ليس ادبا اسبانيا فحسب ، وانما ادبا عالميا ايضا ، استطاعت هذه المأساة ان تعلن ارهاصات ميلادها في انتاج لوركا .. الطفل المرعب الذي صرعته فاشية فرانكو في هذه الحرب ، كما تركت بصماتها الدامية على الكثير من الادب العالمي وخاصة ادب همنجواي وخيمينز ورفائيل البرتو وانطونيو مخادو وغيرهم . واستطاعت مأساة الاوتوقراطية في الصين القديمة ان تعلن عن نفسها في اغلب اعمال الادباء الصينيين وفي اعمال غيرهم من الادباء العالميين وخاصة الامريكية بيرل باك .

رغم ان هذه المآسي كلها استطاعت ان تعطي ادبا حمل المأساة داخله وطاف بكل بلدان العالم يستجلب النصر ويستدعي الخلاص ، ويحمل عبر جزئياته دقائق هذه المآسي بكل ما فيها من بشاعة ولاانسانية، الا ان النكبة الفلسطينية لم تتمكن من انجاب ادب يحمل المأساة خلاله ويطوف بالعالم ليناهض دعايات الادب الصهيوني المضللة . ولا تعني كلماتنا تلك ان المأساة كانت عقيمة تماما ، فقد طرحت نفسها الى حد ما خلال الكثير من القصائد ، وعبر العديد من القصص القصيرة المبعثرة في المجموعات القصصية والمجلات ، وخلال عدد ضئيل من الروايات التي ستتعرض لها بعد قليل ، ولم يصبها العقم والاجداب التامين الا في مجال المسرح .

غير ان كل هذا الانتاج الادبي يتلاشى تماما امام طوفانات الانتاج الادبي الصهيوني الذي دعمت به الصهيونية حقها في اغتصاب فلسطين، فقد استطاعت الصهيونية العالمية ان تترك بصماتها على الكثير من الاداب العالمية ، ولا يمكننا ان ننسى التأثيرات اليهودية في اعمال جيمس جويس وخاصة في روايته (اوليسيوس) ، وغير جويس كثيرون (٣) ، هذا بالاضافة الى الكتاب اليهود الذين استطاعوا ان يغرقوا السوق العالمية بكتاباتهم منذ تيودور هيرتزل حتى يال دايان (٤) مرورا ببنامين دزرائيلي (٥) وجورج اليوت (٦) وارثر كوستلر (٧) وليون اوريس (٨) وغيرهم ، واستطاعت الرواية اليهودية ان تقدم مبررات لا معقولة عديدة لمجيء اليهود الى فلسطين وان تدعم واقعهم الراهن وان تستدر عطف العالم عليه ... فماذا قدمت الرواية العربية ؟! .

***

تنقسم الروايات العربية التي عبرت عن النكبة الفلسطينية الى قسمين ، القسم الاول وهو عبارة عن بثرات ظهرت على وجه المأساة ، وتشير هذه البثرات في الدرجة الاولى الى ان هناك مأساة تطالب بان تعالج على الصعيد الروائي ، كما تعبر دون شك عن رغبة في اثارة القضية ، رغبة طيبة النية بحق وان كان اصحابها يفتقرون الى جدية المعالجة الفنية . والقسم الثاني هو الاعمال التي ارتفعت الى مستوى النكبة .. صحيح ان النكبة اكبر بكثير من كافة هذه الاعمال الا ان غياب المعبر الحقيقي عنها ، وكثرة البثرات التي ظهرت كالطفح على وجه المأساة لتميعها قبل ان تعبر عنها بحق ، هما اللذان يمنحان هذه الاعمال قيمتها ، ولكن اطلاقية هذا الحكم تغمطها حقها ، فوراء كل واحد من الاعمال التي ارتفعت الى مستوى النكبة الى حد ما يكمن فنان بادواته وحسه ورهافته .

ونحب ان نقول بان الاعمال التي عبرت سريعا عن النكبة وقعت كلها في متاهات المباشرة والمعالجة الجلدية والتسطح الاجوف ، بينما استطاعت الاعمال التي ظهرت بعد اتضاح اعماق المأساة ونضوج ابعادها ان تتجنب هذه المتاهات وان ترتفع بحق الى مستوى النكبة . ذلك لان الرواية – على وجه الخصوص – من الاعمال الادبية التي تحتاج الى مسافة زمنية بينها وبين الاحداث التي تعبر عنها ، لان عدم توفر هذا البعد الزمني يقع بها في ضبابية الرؤية ومباشرة المعالجة . بينما لا تحتاج القصيدة الى هذه المسافة وكذلك القصة القصيرة ، لان المرتكز المحوري في كليهما هو اللحظة الانفعالية او الزمنية ، وليس البعد الزمني العريض كما هو الحال في الرواية .

ولقد وقعت روايات القسم الاول كلها في هذه الاخطاء ، ولم تنج واحدة منها من ارتفاع الصوت الذي يصاحب الخطابية والتعبير المباشر، وقد يكون هذا محتملا الى درجد ما في الشعر العمودي بصفة خاصة ، الا انه مستهجن تماما في الاعمال الروائية . ولم تستطع واحدة منها ان تتجنب الفخ المنصوب امام كل الاعمال التي تحمل داخلها قضية وطنية ، الا وهو اغفال الاهتمام بالجانب الانساني والحسي في العمل الفني ، حتى ينسنى التركيز على الجانب التاريخي والوطني به. بينما هذا الجانب الاساسي جزء لا يمكن فصله عن جوهر القضية الوطنية.. ولنترك المقدمات النظرية لنتناول الروايات ذاتها .

***

تحت القسم الاول تنضوي روايات اربع ... هي (طريق العودة)

(٢) استطاعت المأساة الجزائرية ان تنجب شعرا عربيا غزيرا ، وكذلك مسرحية شعرية (مأساة جميلة) لعبد الرحمن الشرقاوي .. هذا غير العديد من القصص القصيرة المتناثرة عبر سوريا ومصر والعراق ولبنان .

(٣) على سبيل المثال لا الحصر ، لورانس داريل ، وفرانز كافكا ، وارسيل بروست ، وماري ماكارثي ، وهنري ميللر ..

(٤) كاتبة اسرائيلية شابة ، احدثت روايتها (طوبى للمرتعدين) ١٩٦٠ ضجة صهيونية عالمية .

(٥) دزرائيلي ، رئيس الوزارة البريطانية المعروف وصاحب رواية (دافيد الروي) ١٨٣٣ .

(٦) روائية يهودية وصاحبة (دايفيل ديرونداا) ١٨٦٧ التي تعتبر اولى الروايات الناضجة عن اليهود ، وان كانت تنطلق بدءا من مغالطة اساسية ، الا انها استطاعت ان تكون حولها جيلا من الروائيين اليهود، وكرمتها اسرائيل فيما بعد واطلقت اسمها على واحد من اهم شوارع تل ابيب .

(٧) ارثر كوستلر روائي يهودي وصاحب رواية (لصوص في الليل) ١٩٤٥ .

(٨) ليون اوريس ، روائي يهودي ، صاحب الرواية التاريخية (اكسودس) ١٩٥٦ المليئة بالحديث عن تفوق اليهود العرقي .

في البحرين

تطلب « الاداب » وكتب « دار الاداب »

من

الشركة العربية للوكالات والتوزيع

شارع المتنبي

ليوسف السباعي (٩) و (طريق فلسطين) لعلي ابو حيدر (١٠) و (دقت الساعة يا فلسطين) ليوسف سالم (١١) و (ارض الانبياء) لنجيب الكيلاني (١٢) . ولما كانت الروايات الاربع منقسمة هكذا ... روايتين لكاتبين مصريين ـ (طريق العودة) و (ارض الانبياء) ـ وروايتين لكاتبين فلسطينيين ـ (طريق فلسطين) و (دقت الساعة يا فلسطين) ـ فسوف نختار واحدة من كل قسم .

ولنبدأ برواية يوسف السباعي ... فبعد ان نمضي مع ابراهيم الضابط المهندس الفنان « الذي يحترم نظم المجتمع وشرائعه ومبادئه وقيوده الخلقية » (ص٣٠) في رحلته الهروبية الى الميدان ، فابراهيم لم يذهب الى الميدان مع خريف عام ١٩٤٨ ، من اجل التوق الى المشاركة في المعركة ، ولا رغبة في مواكبة المد الوطني وقتها ، ولكن هربا من لعنة ديونه بالقاهرة ، تلك الديون التي تراكمت عليه عقب فشل مشروعاته الهندسية ،فشله فيها لانه فنان .. « الفنان يخلق من الهواء (١٣) .. الفنان يحتاج في خلقه الى السكينة والهدوء .. الفنان لا بد ان يسرح » (ص١٢) بينما « المقاول اذا سرح ضاع ماله ودك صرحه » (ص١٣) .. هربا من هذا الفشل سافر الى المعركة املا في ان يحقق له مرتب الميدان المضاعف خلاصا من هذه اللعنة ، لقد « كانت عملية تصفية وهروب واستجمام » (ص١٥) وظلت كذلك حتى النهاية .

اذ لم يشارك ابراهيم بطل الرواية الرئيسي والذي يستدر الكاتب عطفنا على ازمته الساذجة في اي معركة حقيقية من المعارك العديدة المبعثرة عبر الصفحات .. حتى المعركة الاخيرة التي زج الكاتب ببطله في غمارها كنت تحس بانها معركة مزيفة واصيلة الافتعال وكذلك كانت مشاركته فيها . ورغم هذا يحاول الكاتب ـ واضعا هذه المسألة في وعيه باصرار ـ ان يستدر عطف القارىء على هذه الشخصية ، وقد يكون الكاتب حرا تماما في ان يعطف على الشخصية التي يحب،فطالما عطف كبار الفنانين في اعمالهم على شخصيات شاذة ومريضة ، ولكن عطف الكاتب على بطله هنا ينضح بفهم الكاتب المبتسر عن البطولة والاخلاق ، ومن هنا ولد اعتراضنا عليه . ذلك لان كل تصرفات ابراهيم المسربلة بالردية من البطولة والاخلاقية كانت غير جديرة ومن ثم غير متلائمة مع هذا الرداء . فقد تم هربه من فشل اسلوبه الرومانسي في معالجة الوقائع التي صادفته اثناء عمله كمهندس الى الميدان بطريقة رومانسية ايضا ، واستمرت الرومانسية هذه تتعقب خطاه حتى وهو في ارض المعركة ، ولا غرو فقد هيأ له الكاتب فردوسا صغيرا وسط حياة الميدان الكفاحية ، فردوسا لا يمكن ان نحس فيه بميدانية الموقف على الاطلاق . وقد كان باستطاعة الكاتب ان يصهر بطله الفارق في الاحلام الرومانسية حتى اذنيه في بوتقة حياة الميدان الضارية،وان يقابل بين رومانسيته وبين ضراوة الواقع وعنفه ، ليخرج لنا من عملية المقابلة هذه بعمل فني يحمل مأساوية الازمة في ثناياه .

الا ان الكاتب لم يفعل هذا ، بل ظل منساقا وراء رومانسية بطله انسياقا دفعه الى تهيئة جو رومانسي له في ارض المعركة وفي عزلة تامة عنها . فلا يمكننا ان نعتبره باي حال داخل المعركة ، رغم وجوده طوال الوقت بالقرب منها ، فقد عاش ابراهيم طوال الرواية في ذلك « البيت الذي يقع على ربوة رملية تطل على الشاطىء ... والمحاط بحديقة تناثرت فيها بعض اشجار الموالح » (ص٤١،٤٢) كما لو كان يعيش في اي مكان بعيد عن ارض المعركة ، يواصل خلافاته العادية السخيفة مع زوجته ، ثم يستمرىء حبه الساذج لليلى زوجة مراد ، ذلك الحب الذي نحت ابعاده من التوافق الغلافي بين الاثنين ، ومن تصيد اتفاقهما في تلك الاشياء الملامحية للغاية ، كأن يحب كل منهما فنجان الشاي باربع قطع من السكر ـ رغم لامعقولية هذا في حد ذاته ـ او ان يعشقا سويا اغنيات عبد الوهاب ...

ولو تمت هذه الاحداث كلها في مكان اخر لما حدث اي شيء ... ولكن الكاتب مصر تماما على ان يكتب رواية عن فلسطين ، دون ان يكون لديه الا المعرفة العامة بانواع الاسلحة واسماء الثكنات ، وبأن حربا دارت في تلك المنطقة عام ١٩٤٨ . ورغم كل هذا فهو مصر على ان تكون روايته عن فلسطين . ولهذا يدس بين احداثها بكلمات زاعقة تشير من بعيد ـ رغم علو صوتها ـ الى فضيحة الاسلحة الفاسدة دون ان تبحث بعمق حقيقة هذه الفضيحة او تحاول الوقوف على جذورها . ثم صورة شديدة التجريد للاجئة فلسطينية دفعت بها المأساة الى ان تعمل (خادمة) لدى ابراهيم الفارق في قصة حبه الرومانسية الساذجة .

ولا ادري لماذا استقطبت قصة الحب الرومانسية هذه اغلب صفحات الرواية ، فاستطاعت بذلك ان تحتل المكان المحوري بها ،بينما افلتت الازمة المحورية الاساسية في الرواية من بين يدي الكاتب،فسحة واجهة الاحداث لهذه العلاقة الرومانسية . ولم تتمكن الرواية بعد ذلك من ان تجعل لها محورا ثانويا في ازمة الجنود الذين يعيشون في صحراوات القتال بلا ذخيرة ، اذ كان العلاج الفني لهذه المأساة دون مستواها بكثير ، فقد تم عبر هتافات خطابية زاعقة لم تتمكن من تعميق الازمة في وجدان المتلقي بل مرت بها ، ومست اطرافها ،من بعيد .وقد جاء اهتمام الكاتب بهذه العلاقة ضمن اهتمامه بابراهيم ، تلك الشخصية الخاملة الذابلة التافهة ، بدعوى ان الفن هو الذي يحول الناس الى نماذج خالدة لا نفع يرتجى منها . ولهذا لن نحاول ان نحلل هذه العلاقة ولا ان نوضح للقارىء مدى تفاهتها وسطحيتها ، ولكننا سنحاول ان نتعقب خطى مراد رغم عدم تعاطف الكاتب معه ، ثم نهي التجريد الانساني للنكبة الفلسطينية كما يتصورها يوسف السباعي.ولنبدأ بمراد.

يقدمه لنا الكاتب منذ البداية بطريقة منفرة ... « كان جسورا مندفعا ... مستهترا .. لا يقيم وزنا للشكليات الخلقية او القيم الموضوعية .. المهم ان يصل الى ما يريد باسرع الطرق .. وايسر الوسائل » (ص٢٦،٢٧) ... كذا .. مرة واحدة هذا السيل من الكلمات الانشائية ... ولكن انتظر فسوف يقذف الكاتب في الصفحة التالية مباشرة كل صفاته الجسدية في وجهك مرة واحدة بعد ان قذف بالخلقية ، وبنفس الطريقة الانشائية ... وذلك حتى (تكتمل) الصورة « الجسد العريض القوي ، والقوام الربعة .. والقميص المفتوح الذي يبرز منه شعر صدره المشعث ... والاكمام المشمرة التي تكشف عن عضلات ساعديه ، وشاربه الاصفر المنكوش تحت انفه كأنه شواشي الذرة .. او كأنه فيونكه صفراء في وجه قطة ... وصوته المرتفع وضحكته العالية الصافية » (ص٢٨) ... لا بد ان الصورة قد اكتملت الان .. وحتى تتضح بقية ابعادها فلا بد ان تعرف انه سكير وزان وشاذ السلوك ويعامل زوجته بطريقة لا انسانية ، ويضرب عباد الله بسبب وبلا سبب .

هذا في الوقت الذي يحظى فيه ابراهيم باحترام الكاتب ورغبته في تبرير كل سلوكه ... ولكننا سنتغاضى قليلا عن هذا الموقف المسبق الذي يدفعنا الكاتب لان نقفه من مراد .. لنقوض معه في المقلاة ـ على حد تعبير غسان كنفاني ـ ولنفتح اعيننا على واقعه الدامي المرير ،حيث يقف وسط المعركة بلا عتاد ولا عدة ، تقتال الامكانيات العاجزة جنوده واحدا تلو الاخر ، امام عينيه ، وهو عاجز عن فعل شيء .. اللهم الا معاقرة مأساته مع كؤوس الويسكي القليلة . وتبلغ مأساته ذروتها في الفصول الثلاثة التي دارت خلالها معركة النبة ٨٦ ... ففي هذه الفصول الثلاثة يمكنك ان تحس بان الرواية حية ونابضة بالحركة ، ربما لان يوسف السباعي كان ضابطا وله ـ الى حد ما ـ خبرة حسية باعمال القتال ، وربما لمأساوية الموقف الذي يحارب فيه جنود بدبابات بلا بطاريات ومدافع بلا ذخيرة ، وربما لاي شيء اخر ، ولكن بعد هذه

---

(٩) الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، يناير ١٩٥٨ .
(١٠) دار الحكمة للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت،١٩٥٩تقريبا.
(١١) دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
(١٢) الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، نوفمبر ١٩٦٣ .
(١٣) ليس هنا مجال مناقشة مفهوم الكاتب عن الفن والفنان .

الفصول الثلاثة تعود الرواية الى سابق برودتها ورتابتها ، ويبدأ الصدق الفني والواقعي في التخلي عن جزئياتها ، لتضرب من جديد في سراديب المباشرة والسطحية .

فبعد انتهاء هذه المعركة حاول مراد ان يدفن انصعاقه عقب هذا الانتصار الدامي او الهزيمة المنتصرة التي سفرت عنها لمعركةفي احضان ريتا ـ عشيقته ـ قائلا بالكاتب يهدم السياق السليم للقصة امام رغبته في الوعظ الاخلاقي ، وامام تلك الصدفة الغبية .. صدفة عدم وجود ريتا وسفرها في هذا اليوم بالذات ... وكان من ضرورة السياق الفني الصحيح للقصة ، ان يجدها حتى يدفن في احضانها هزيمته المنتصرة ، بدلا من لقائه بحامل النياشين الذي يخبره بان لا نيشانله، رغم انه المستحق الوحيد لاي وسام يمنح من اجل هذا النصر الذي تحقق على حطامه ، فيزيد بذلك من تعقيد الموقف ، ثم ما يلبثالكاتب ان يدرك وعورة المنزلق الذي دفع ببطله فيه ، فلا يكون المخرج منه سوى دفن المأساة في غيبوبة الخمر وهذيانها ، مما ميع قضية المعركة رغم كل ابعادها المأساوية ... ذلك لان كل شيء يمكن حله ـ من وجهة نظر الكاتب ـ ببعض الكلمات التي يلقيها بعد كل مأساة .. « عجبا لحياتنا ... تلقي بنا في لخبطة عابثة .. بلا توليف .. ولا ترتيب.. فتضيع طاقاتنا .. وتتركنا مجرد خردة » (ص٢٨٩) ...

ورغم كل هذا يمكننا ان نحس بغوص مراد في المقلة طوال هذه المعارك . انه يغوص فيها بروح المحارب المشحون توقا لتحقيق النصر.. ومن خلال غوصه في هذه المعارك نحس بالظروف الجديدة التي كانت تعيشها جيوشنا خلال الحرب الفلسطينية ومن ثم ندرك لماذا رافقت الهزيمة خطواتها ... غير ان الكاتب يضن على مراد ـ رغم مشاركته الفعالة في المعركة ـ باي تعاطف ، بينما يستمر في مواصلة تعاطفه مع ابراهيم حتى يمنحه في نهاية الرواية استشهادا مزيفا . ويترك مراد جريحا في المستشفى .. ليذهب بزوجته الى مقبرة ابراهيم في الغفير ... حتى تذرف على رفاته دمعات حب ... بينما نهى في مكان اخر تمجد بطولته . ولا ادري حتى الان لماذا يصر يوسف السباعي على هذا المفهوم المقلوب لمعنى البطولة ، فيمنحها للشخصية الخاملة ويضن بها على الشخصية الايجابية الفعالة .

بعد هذا ... ننتقل الى نهى ، الفتاة الفلسطينية التي اراد يوسف السباعي ـ بنية طيبة وسليمة ـ ان يجسد من خلالها تمزق فلسطين وضياعها ، ولكنه للاسف ، ورغم سلامة طويته ، فشل في هذه ايضا ، اذ جاءت نهى صورة باهتة شديدة التجريد للاجئة الفلسطينية . فقد جسد يوسف السباعي قمة ازمتها في طوفانها شاردة عبر صحراوات الشروق ... وفي يقظتها المبكرة لانتظار شروق الشمس حتى تدعو الله بالعودة الى وطنها ، وتشي له برغبتها في ان يكون الشروق التالي هناك ... في فلسطين . غير ان ضراعاتها هذه ما تلبث ان ترتمي عاجزة امام عنف الواقع الذي ينضح يأسا ... يأس من النصر الذي تلوح بشائر الهزيمة راكضة على اشلائه ... ويأس من الوطن الذييلوح طريق العودة اليه باهتا ولامرئيا .. ويأس من الحب .. ولتنفرس ملامح هذا الحب قليلا .

فقد جاء هذا الحب ضمن اطار رغبة الكاتب الافتعالية في استدعاء تعاطف القارىء مع ابراهيم ... وكان من الضروري ان يكون هذا الحب يائسا ، لا لشيء الا لان جذوره تضرب من البداية في صحراوات اليأس ، الذي يلوح لنهى خلال علاقة الحب الرومانسية الواضحة بين ابراهيم وليلى بمناديله القاسية السوداء ، كما ينحت هذا اليأس ملامحه في الوقت نفسه من وضع نهى الاجتماعي ، فهي ليست سوى خادمة وابراهيم سيدها ، خادمة دفعتها تلك الظروف الضارية الى الارتماء تحت اقدامه . وقد كان ممكنا لو ان الرواية كانت على درجة من الفنية والتماسك ان نهب هذه العلاقة وجها رمزيا يمتاح بها حدود التفسير الحرفي ، ذلك لانه كان باستطاعة حب نهى لابراهيم ـ لو لم يكن الاخير على هذه الدرجة من الخمول والغثاثة ـ ان ينال وجها شموليا رائعا ، فيصبح انعكاسا لتدله البلد الممزق فيهوى البلد المنقذ ، ومن هنا يجيء يأس هذا الحب وعدميته ، فقد كان التمزق هو الاخر ينخر اعماق البلد المنقذ ، ويستل كل شروط الحياة السليمة منه . ولكن القول بهذه الفكرة هنا ، يكون بمثابة الالقاءبعباءة فضفاضة للغاية على جسد شديد الهزال ، خاصة وان الكاتب لم يركز على هذه العلاقة بالدرجة التي تبيح لنا اضفاء هذه الفكرة على روايته، ولو توفرت لهذه الفكرة وحدها الخلفية الفلسفية ، والطاقة الفنية الفاهمة لطبيعة عملها لامكن لها ان تشكل محورا اساسيا تدور حوله كافة الاحداث الروائية ... ولكن الكاتب لم يقدم خلال هذا النموذج ـ نهى ـ الذي كان يمكن اتخامه بالثراء الفني ، سوى بعض التلميحات الهزيلة عن الضياع والتمزق واللامل .. مع العديد من الاشارات الى توقه لرسم طريق ... طريق للعودة كما يعلن عنوان الرواية .. ولكن للاسف .. لم يرسم هذا الطريق ... لا عبر احداث الرواية .. ولا حتى في خيال نهى الشاردة بحثا عنه .. لكل هذا يمكننا ان نقول بارتياح ان الرواية لم تتمكن جملة من الارتفاع الى مستوى المأساة ، او حمل ابعادها داخل جزئياتها .

***

ورغم انه ما زالت هناك ملاحظات عديدة حول (طريق العودة) الا اننا سنكتفي بهذا القدر لنتحدث عن رواية الكاتب الفلسطيني علي ابو حيدر ... وهو الاخر يضع كلمة الطريق ضمن عنوان روايته (طريق فلسطين) .. فهل رسمت الرواية حقا معالم الطريق الى فلسطين ؟... من البداية نستطيع ان نقول لا ... وان كانت قد برقت عبر جزئياتها اشارة سريعة اليه من خلال توحده بطريق الامة العربية كلها ، ومن خلال مزاوجة الكاتب بين مصير الحركات التحررية في البلاد العربية وبين مصير الوطن الفلسطيني . وقد عجزت الرواية عن رسم طريق لفلسطين ، كما يعلن عنوانها ، لا علي ابو حيدر كان يفتقد الكثير ، واهم ما كان يفتقده الى جانب الحس الفني في معاقرة التجربة ، هو المعرفة النوعية العميقة بجزئيات المأساة ، وبملامحها الفردية المتميزة ، فرغم انه يستطيع التعلل بمعايشته الحقيقية لها على الصعيد الواقعي لانه واحد من مواليد المأساة .. فقد فتح عينيه ذات صباح ليجد بلاده تحت اقدام الغزاة .. بل مستسلمة لهم تماما . الا انه لم يتمكن في روايته تلك من ان ينقل لنا ابعاد المأساة او يثير تعاطفنا عليها . ولم يستطع ان يقدم لنا ملامح خاصة وفردية لها ، اذ ان كل ما دار في الرواية يمكن ان ينطبق بيسر على اي مأساة وطنية ، وبالتالي فان هذا لا يبلور ابعاد القضية او يوضح ملامحها .

والسبب في ذلك يرجع الى وقوعه من البداية في وهاد الخطابية ... والى اهتمامه بالاحداث الهامشية بها ، ولنبدأ بمسألة الخطابية.. فانطلاقا من رغبة الكاتب في ان يؤكد لنا توق كل فلسطيني لتحرير بلاده، قدم لنا اغلب شخصيات قصته ، التي تدور حول ذهاب زوجي الاختين مريم وسلمى الى ميدان القتال ، في صورة تجريدية شاحبة خلال رغبته في اسدال اردية فضفاضة من الوطنية عليها . وقد ساهم في تجريد الشخصيات وتوضيح شحوبها صخب الفترة التاريخية التي دارت خلالها احداث الرواية ، حيث ازدهر الاهتمام بالقضية الفلسطينية ، واخذت ملامحها في التبلور بعد ثورة البراق في اغسطس عام ١٩٢٩ وبعد ان بدأت حرب العصابات تغطي وجه الارض الفلسطينية منذ ان اعلن الشيخ عز الدين القسام اشارة الانطلاق عام ١٩٣٤ ... في هذه الفترة كانت ترزح بلدان الشام العربية تحت نير الاستعمار الفرنسي ، وكانت الرغبة الحادة في مقاومة الغزاة من الفرنسيين واليهود قد وحدت بين الصفوف العربية ، واستطاعت ان تفجر من حادثة صغيرة ـ رغبة اليهود في اعادة بناء هيكل سليمان مكان حائط المبكى ـ كافة مراجل الغضب وطوفاناته ، وان تصبغ وجه الفترة بلون دموي صاخب، وان توحد بين مصير الحركات الجماهيرية العربية ، فنجد مصطفى البراق يقود المظاهرات في دمشق اليوم بينما يتوجه صباح الغد الى ميدان القتال في فلسطين .

ـ التتمة على الصفحة ٦٣ ـ

نكبة فلسطين في الرواية العربية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٦ ـ

وسط هذا الجو المتخم اضطرابا وقلقا تدور احداث (طريق فلسطين) في احدى القرى التي يرسمها الكاتب في مطلع الرواية بالوان سلامية هادئة لم تتناسب مع صخب الفترة وضجيجها واضطرابها ، في هذه القرية النائمة في وداعة وسط مساحات الخضرة ، يبدأ الرجال في التطوع للذهاب الى جبهة القتال ، ومن وسط هؤلاء يختار الكاتب شريحة صغيرة ـ هي الاخوان سالم وعبد اللطيف زوجا الاختين سلمى ومريم ـ ليقدم من خلالها كل ارتعاشات المعركة . هذا هو الخط الرئيسي الذي نوحي به الصفحات الاولى من الرواية ، غير ان الكاتب ما يلبث ان ينشىء حول هذا الخط الرئيسي العديد من الاحداث الثانوية التي تنحو به بعيدا عن المنطلق الاساسي للرواية . فبعد ذهاب الاخوين ـ سالم وعبد اللطيف ـ الى الجبهة يدفع بنا الكاتب في سراديب هامشية عديدة عن رغبة فراج في الاستحواذ على سلمى .. وعن مقاومة الاختين ووطنيتهما ونسجهما صديرات الصوف للمجاهدين ، ثم مغامرة سلمى الاسطورية في توصيل هذه الصديرات الى الجبهة ، تلك المغامرة التي زجت بنا معها في احداث هامشية عديدة . حيث شاركت في المظاهرات العديدة التي رافقت فيها خطوات الوطني القديم سليم ابو الوفا في الاراضي السورية . ثم رغبات فراج الحلمية البلهاء في الحصول على منصب الوزارة رغم اميته ، وفي الزواج من سلمى ... وهنا ترك الكاتب موضوع الرواية الرئيسي تماما ليقدم لنا جزئيات حياة فراج وحيله الدنيئة ثم سرقته لنقود ابى توفيق واغتياله ، وتمزيقه لجثة زوجته ، واصابته مريم برصاصة ، ثم مصرعه اخيرا على يدي سالم.

خلال كل هذا يدق الكاتب بخطابية زاعقة على وطنية سلمى وشجاعتها وصلابتها ... مقابل تفسخ فراج وانانيته ولا انسانيته ، وهذا في حد ذاته عمل طيب ، غير انه تم بطريقة خطابية فاقعة . فمن خلال المنولوجات الداخلية لسلمى نحس بوطنيتها الزاعقة المجردة خارج الموقف عبر خطابية لا حسية « البطولة في شعبنا تكاد تذهلني ، فكيف دخل المستعمرون بلادنا ؟.. ومتى دخلوا ؟.. » (ص ٩١) هذا العهد الصامت يجعله الكاتب قدر سلمى طوال احداث الرواية .. كل هذا بالاضافة الى تلك الشخصية التي حملت بطاقات وطنية غير معقولة .. سليم ابو الوفا ...

كما ان نمو الكثير من الاحداث الهامشية التي استغرقت اهتمام الكاتب بدرجة كبيرة ، هو الذي ولد ذلك التشتيت واللاتماسك الذي يرين على فصول الرواية كلها ، وينوش كافة احداثها . والذي يحاول الكاتب ان يدس بأنفه بين جزئياته باستمرار ... مما يؤدي الى انتزاعنا في اغلب الاحيان من استمرارية الانسياق العفوي للاحداث ... فبعد ان اغتال فراج ابى توفيق وسرق صندوق نقوده ، اذا بالكاتب يدس انفه فجأة في تيار الاحداث ليلقي بين ايدينا من خلال خديعة طفولية حكمة جوفاء وخالية من المعنى « لم يكن الصندوق مقفلا ولم يبد لعينيه أن به مكانا لمفتاح ، ولكنه انفتح حين حركه بين يديه ، ورأى فراج فيه شيئا كأنه الكتاب . صاح في نفسه : ماذا ؟.. ماذا ارى ؟.. ومد يده فأخرج القرآن الكريم » (ص ١٧٦) .. ثم محاولة الكاتب الساذجة ايضا في المزاوجة بين الحدث الخارجي وبين اعماقه الشخصية وذلك من خلال تصيد التوافقات الملامحية بين الواقع الخارجي وبين ما يدور في اعماق شخصيته من افكار « تذكر فراج ان الرجل كان يرتدي طربوشا احمر فتملكه رعب وهو يذكر ذلك ، ولم يدر ما العلاقة المباشرة بين لون الطربوش والافكار التي كانت تعبث في فكره منذ قليل » (ص١٢٩) .. ثم كلمات ابى توفيق لفراج بينما يفكر الاخير في قتله « ذكرني هذا الاصفرار الذي اراه ، بوجه قاتل جاء يحتمي عندي بعد ان ارتكب جريمة قتل فظيعة .. يا للمسكين !.. لقد اعدم .. ما زلت اذكره ، كأنه ما يزال قدامي .. يا للمسكين !! » (ص ١٤٥) ... وغير ذلك كثير من الكلمات والمواقف التي تنضح بالمباشرة وعلو الصوت .

غير ان هذه الاخطاء كلها لا تعد شيئا بالنسبة للشرك الرئيسي الذي وقعت فيه الرواية ، بل لقد كان ممكنا اغتفار كافة هذه الاخطاء ، حيث انها دائما ما ترافق خطوات الكتاب الاولى ، لولا وقوع الرواية في هذا الشرك ... العمومية والتجريد ... حيث فقدت المأساة كل ملامحها الفردية ، وانداحت الاحداث في تيار من الحديث عن الوطنية .. حديث يمكن ان ينطبق على اي شيء مماثل .. وبهذا لم تتمكن الرواية ـ اذا اضفنا كل الاخطاء السابقة ـ من حمل ابعاد المأساة داخل احداثها .. او رسم معالم الطريق الذي ارادته طريقا لفلسطين .

وهنا يمكننا ان نقول ان كل الكتاب الذين وضعوا في اذهانهم رسم طريق لفلسطين ولاستردادها لم يتمكنوا من رسم هذا الطريق ، او حتى من التعبير السليم عن ابعاد النكبة الفلسطينية . بينما استطاعت الروايات التي اهتمت برصد الابعاد الحقيقية للنكبة ان تحمل لنا بطريقة عفوية ارهاصات ميلاد الطريق الحقيقي للعودة . وهذا ما سوف نراه عند حديثنا عن روايات القسم الثاني .. الروايات التي ارتفعت بحق الى مستوى النكبة .

***

تنضوي تحت هذا القسم روايتان ... (رجال في الشمس) لغسان كنفاني (١٤) و (ستة ايام) لحليم بركات (١٥) والكاتبان من شباب هذا الجيل ... جيلنا .. الذي فتح وعيه على ذكريات آبائه عن الحرب العالمية الاولى ... بينما عاش ، مع مطالع ادراكه للحياة ،

---

(١٤) منشورات دار الطليعة ، بيروت ، يناير (كانون الثاني) ١٩٦٣

(١٥) صدرت عن دار مجلة شعر ، بيروت ، فبراير (شباط) ١٩٦١

مؤلفات سارتر

* **دروب الحرية**
رائعة سارتر باجزائها الثلاثة
١ ـ سن الرشد ٥٥٠ ق.ل
٢ ـ وقف التنفيذ ٦٥٠ ق.ل
٣ ـ الحزن العميق ٥٥٠ ق.ل
ترجمة الدكتور سهيل ادريس

* **الغثيان**
اعمق روايات سارتر ٣٥٠ ق.ل
ترجمة الدكتور سهيل ادريس

* **محاورات في السياسة**
بالاشتراك مع روسيه وروزنتال
ترجمة جورج طرابيشي ٢٠٠

* **عاصفة على السكر (ط ٢)**
ترجمة عايدة مطرجي ادريس ٣٠٠

* **عارنا في الجزائر**
ترجمة عايدة وسهيل ادريس ١٠٠

نكبة البشرية في هيروشيما .. ثم نكبة بلاده في فلسطين . ومـــا زال يفتح عيونه كل صباح على واحدة او اكثر من المآسي الضارية التـــي تمزق وجه عصرنا .. وهما ايضا من ابناء فلسطين ، الوطن الذي تركت النكبة بصماتها عليه في اعنف اشكالها . لذا فانهما يعيان بعمق الابعاد الحقيقية للمأساة ... ومن ثم استطاعا ان يجسداها داخل روايتيهما.. وان ينقلا لنا بحق زخم المأساة بكل جزئياتهـــا الحسية الصغيرة .. الجزئيات التي تهبها وجهها الذاتي ، والتي تجسد ملامحها الفرديـــة وتقف بها شهادة عار على جبين هذا العصر .. استطاعا ان يقدما كـــل ذلك من خلال معايشتهما العميقة لدقائق النكبة الفلسطينية . ورغبتهما في ان ينقلا للقارىء كافة ابعادها . ولنبدأ برواية غسان كنفاني .

تقف (رجال في الشمس) في طليعة كل الروايات التي صدرت عن فلسطين . اذ استطاعت ان تجسد في تكثيف وعمق كل ابعاد الازمة، وان تصوغها لنا في اطار رمزي ممتاز ، عانق فيه الوجه الرمزي للمأساة الوجه الواقعي لها والتحم به تمام الالتحام . ومن البداية كـان غسان كنفاني مدركا لنوعية التحدي الذي تقدمه النكبة الفلسطينية للعالـــم اليوم ... تحدى اليد المبتورة الذي سبق ان رسمنا بعض ملامحه .. ومن ثم جهد لتخليص ابطاله من لعنة هذا التحدي ... ولكن هـــل تخلصوا منه تماما ؟.. يصعب علينا ان نجيب بنعم او بـــلا .. ذلك لان رغبة ابطال غسان في التخلص من لعنة ايديهم المبتورة وتوق كل منهـم العنيف لتحقيق كينونته ، خلال عملية هروب دامية من اغلال واقعهم .. هي التي اجهزت على حياتهم تماما . فالمأساة لا يمكن ان تحل عن طريق الهروب من مواقع النكبة حيث تنسج الخيوط المأساوية الضارية قدر كل ابناء الارض السليبة .. هذا القدر لا يمكن اجتيازه خلال محاولـة الهروب منه ... ذلك لان اي محاولة للهروب من احد فتحات الفخ لا بد ان تؤدي الى الوقوع في فتحة اخرى .. ما دام الفخ نفسه مـــا زال منصوبا ... فالواقع اكثر تشابكا من سذاجة المغامر الفرد .. هـــذا ما سوف نراه عندما نستعرض احداث الرواية ، وان كانت هذه العملية عسيرة الى حد كبير ، اذ ان الرواية شديدة التركيز ، وهذا هو السر في ان كلماتها محملة بما فوق طاقة الكلمة العادية من معان ، ومشحونـــة برؤية الكاتب لابعاد المأساة ، ومن هنا استطاع الكاتب ان يكشف كافة ملامح النكبة خلال احداث روايته ، وان يعطينا الصورة الحقيقية لمـــا يمور في اعماقها من ضياع .

مع صيف عام ١٩٥٨ تبدأ احداث الرواية .. بعـــد مـــرور عشر سنوات على ميلاد الحقيقة الدامية ... الـــلاوطن .. عشر سنـــوات استطاعت ان تؤكد لكافة الاجيال استمرارية هذه الحقيقة الدامية ، ومن ثم بدأ الجميع في التصرف حيالها ... ولما كانت المأساة الكبيرة التـي تضم كل الاجيال بين دفتيها واحدة .. كان التصرف حيالها يجنح ـ بصفة عامة ـ الى نفس الطريق مهما تباينت الاجيال ومهما اختلفت جزئيـات مآسيهم الصغيرة ، التي ترتوي من نفس النبع المأساوي الكبير .. اللاوطن ... لهذا يجمع الكاتب الاجيال الثلاثة التي عايشت النكبة الفلسطينية ويصهرها في بوتقة واحدة ... جيل ابو قيس .. وجيل اسعـــد .. وجيل مروان .. فهذه الشخصيات الثلاث ليست اكثر مـــن تلخيص للاجيال الثلاثة التي عاقرت النكبة .. وانصهرت في بوتقتها حتـــى النخاع ، وباستطاعتنا ان نجمع مآسيها الصغيرة لنخرج بصورة واضحة عن كل المشكلات التي تتعقب الانسان الفلسطيني اليوم ... ولنتناول كل جيل على حده .

ابو قيس ... من الجيل الذي عاش بكامل وعيه اعنف لحظـــات النكبة ، لحظة السقوط والاستسلام والهزيمة ، ثم عاش بعد هذه اللحظة الدامية عذابات الضياع .. عاش يحسد الذين ماتوا كالاستاذ سليـــم مدرس القرية الذي سقط قبل ليلة السقوط بيوم واحد .. « لا شـك انك كنت ذا حظوة عند الله حين جعلك تموت قبل ليلة واحدة من سقوط القرية المسكينة في ايدي اليهود .. ليلة واحدة فقط .. يا الله !.. اتوجد نعمة الهية اكبر من هذه ؟.. صحيح ان الرجال كانوا في شغـل عن دفنك وعن اكرام موتك .. ولكنك على أي حال بقيت هناك .. بقيت هناك !.. وفرت على نفسك الذل والمسكنة وانقذت شيخوختك من العار» (ص ١١) فان يظل الانسان ميتا هناك خير من تجرعه عذابات الضيـاع والتشرد واللاوطن .. وخير من حملة سنوات العمر الجائع على كتفـــه حتى البصرة باحثا عن يد يرتفقها حتى الكويت .. يد مهرب خبر الدروب، تهرب به من لعنة حاضره المزق الى ذلك الفردوس المرتجى .. « وراء هذا الشط ، وراءه فقط ، توجد كل الاشياء التي حرمها . هنا توجـــد الكويت .. الشيء الذي لم يعش في ذهنه الا مثل الحلم والتصور يوجد هناك » (ص ١٤) في هذا الفردوس سيدفن ابو قيس ضياعه وعذابات الانتظار الطويلة .. « في السنوات العشر الماضية لم تفعل شيئا سوى ان تنتظر .. لقد احتجت الى عشر سنوات كبيرة جائعة كي تصدق انـك فقدت شجراتك وبيتك وشبابك وقريتك كلها .. فـــي هذه السنوات الطويلة شق الناس طرقهم وانت مقع ككلب عجوز في بيت حقير .. ماذا تراك كنت تنتظر ؟ » (ص ١٥) ... ولم يكن ابو قيس ينتظر شيئا ، بل لقد احتاج وجيل النكبة باكمله الى عشر سنوات كاملة حتى يعي هـــذه الحقيقة اللاانسانية الدامية .. حتى يعي عبر هذه السنوات الجائعة حقيقة فقدانه لكل شيء .. حتى الامل والبيت « انه ليس بيتك .. رجل كريم قال لك اسكن هنا ! هذا كل شيء ، وبعد عام قال لك اعطني نصف الغرفة ، فرفعت اكياسا من الخيش بينك وبين الجيران الجدد .. وبقيت مقعيا » (ص١٥) .. تعاني من عذابات الضياع الذي يمور فـي اعماقك فيمزق كل كيانك .. يعاني من توقه الملتاع الى شجيراته وبيته وارضه .. الارض التي يعشقها كانثى حلوة ثرية معطاء .. « كلما تنفس رائحة الارض وهو مستلق فوقها خيل اليه انه يتنسم شعر زوجته حين تخرج من الحمام وقد اغتسلت بالماء البارد .. الرائحة اياها ، رائحة امـرأة اغتسلت بالماء البارد وفرشت شعرها فوق وجهها وهو لم يزل رطيبا .. الخفقان ذاته : كأنك تحمل بين كفيك الحانيتين عصفورا صغيرا » (ص ٨) .. غير ان كل سنوات الانتظار الطويلة لم تفده شيئا ، فكان لا بـــد ان يستجيب لكلمات سعد وان يحمل شيخوخته على كتفه ويرحل .. فمـا زالت أم قيس ولودا .. وما زال قيس صغيرا .. وهما في حاجة لان يعيشا في مستوى افضل من ذلك المستوى الحشري للحياة .. وذاب كل تردده امام كلمات سعد الاخيرة « تموت !.. هيه ! من قال ان ذلك ليس افضل من حياتك الان ؟.. منذ عشر سنوات وانت تأمل ان تعود الـــى شجرات الزيتون العشر التي امتلكتها مرة في قريتك .. قريتك ! .. هيه ! » (ص ١٦) ايقظه سعد من دواماته الحلمية ، فحمل كل سنوات عمره الاسيانة على كتفه ورحل الى البصرة مع كل آلام جيله الذي انتظر عشر سنوات دون رجاء .. عشر سنوات ظل يجتر خلالها دون انقطـــاع حلمه بالارض والزيتونات العشر والبيت .. حلم العودة .

اما سعد فانه من الجيل التالي ... الجيل الذي لم تتوكد فـي اعماقه الارض ولا الزيتونات العشر ولا البيت ... ولكنه فتح وعيه على واقعه الهلامي اللامحدود ، ومن ثم تأصل الضياع في اعمـاقه بصورة مرعبة ، وتفتحت عيونه على وحدة مريرة كاليتم « واحس فيما كان يرتقي الوهاد الصفر ، انه وحيد في كل هذا العالم » (ص٢٥) ومع انه يتمزق من اهوال وحدته المريرة تلك ، الا ان ابعاد مأساته اكثـــر غورا من ذلك ، فهو مطارد ولا يملك حتى هويته « ان اسمك مسجـــل في كل نقاط الحدود ، اذا رأوك معي الان .. لا جواز سفر ولا سمـة مرور » (ص٢٤) ولا شيء ... لذلك فهو يمسح بدأب واصرار عنيدين كل الطرقات ، عله يجد خلاصا من براثن الوحدة والمطاردة ، المطاردة من الاردن التي لا هوية له فيها ... ومن جحافل الوحدة التي تنوش اطرافه فتتأكل كل كيانه ... ومن عمه الذي يروم تزويجه من ابنتـــه ندى رغما عن ارادته « من قال له انه يريد ان يتزوجها ؟ .. من قال له انه يريد ان ينزوج ابدا » (ص٢٨) ... هذا التحدي الصامت لواحد من عناصر المطاردة لا يملك اسعد ان يزيح عن كاهله عبئية الصمت... ويستمر هكذا ، حتى تقذف به كل هذه التحديات في النهاية فيمسارب الطريق .. الطريق الى الفردوس المرتجى الذي تحلم بظلاله الوارفة جميع الاجيال ... الكويت ... وفي سبيل بحثه التائق دوما الى هـذا

الطريق ، فانه يرتفق اكثر من يد ، وما تلبث هذه الايدي كلها ان تسفر ببشاعة وبلا رحمه عن خيانة عهودها معه ... وتتركه يجوب مع وحدته كل الدروب ، ويختبر بنفسه مرارتها .. « كلهم يتحدثون عن الطريق ... يقولون : تجد نفسك على الطريق ! .. وهم لا يعرفون من الطريق الا لونها الاسود وارصفتها ! » (ص٢٤) هو وحده الذي يعرف مرارتها .. هو وحده الذي دميت قدماه من اشواكها .. ثم هو وحده ايضا المطالب بان يرتق ايامه البالية ، وان يستدعي ، بالعرق والدم ، يوما حقيقيا الق الصباح حتى ينقذ نفسه من براثن ذلك الضياع الذي رافق خطواته منذ البداية .

اما مروان ... اخر الاجيال التي ولدت قبل لحظة السقوط الدامية ، واول الاجيال التي رضعت من مطالع حياتها الظلم والكراهية وحلم العودة .. فان ابعاد ازمته اكثر مأساوية من اي من الاجيال السابقة . ذلك لانها لا تنحت ملامحها من الحلم الاسيان توقا الى الارض والزيتونات العشر والبيت ، ولكن من التحدي الحقيقي السافر الذي يسحب الارض بلا رحمة من تحت اقدامها ، وينتزع حقها في شروط سليمة لحياتها ، دون ان تثير مأساته الضارية ، ولا صراعه البطولي الفاشل في اجتيازها ، ادنى التفات من احد « وحين انتهت كل محاولاته الى الفشل اتكأ على الحائط .. كانت جموع الناس تعبر حواليه دون ان تلتفت اليه » (ص٣٧) .. ورغم توحده الراعب هذا ، ورغم عوده الغض وسنوات عمره الطفلة « عليه أن يكون أكبر من رجل واكثر من شجاع ، والا ضحك عليه وخدعه واستغل سنيه الست عشرة وجعل منه العوبة » (ص٣٦) .. ولكنه لا يشعر امام صلابة حائط فشله البطولي الا بانه كان « منفردا وغريبا في مثل هذا الحشد من البشر » (ص٣٨) .. من اعماق توحده وغربته وضياعه يكتشف « عبث اي محاولة يقوم بها لترميم كرامته » (ص٣٧) او لاستعادة ماء وجهه الذي وعى مع بدايات تفتحه على الحياة فقدانه .. لذا فليس امامه سوى « ان يمضغ ذله » (ص٣٧) وان يحمل مأساته على كتفه ويرحل .

فمع عامه السادس عشر يفتح عينيه فجأة على تلك « الحقيقة الراعبة .. الحقيقة التي تقول ان اباه قد هرب .. هرب .. هرب.. تماما كما فعل زكريا الذي تزوج وارسل له رسالة صغيرة قال له فيها ان دوره قد اتى ، وان عليه ان يترك تلك المدرسة السخيفة التي لا تعلم شيئا وان يغوص في المقلاة مع من غاص » (ص٤٦) دون ان يعبأ واحد منهما بعوده الغض او بسنوات عمره الطفلة ، فزكريا « لن يفهم قط معنى ان يتعلم الانسان ، لانه ترك المدرسة حين ترك فلسطين وغاص، منذ ذاك ، في المقلاة ، كما يحب ان يقول » (ص٤٧) .. اما ابوه فانه يعيش نفس احلام ابو قيس في الارض والزيتونات العشر والبيت .. ولذلك ما يلبث ان يضحي بكل شيء .. اولاده واسرته .. دون تردد حينما تبرق امامه امكانية تحقيق جزء من حلمه .. سقف الاسمنت الذي يتمدد تحت ظله بارتياح والذي يستمد من فيئه احساسا بالطمأنينة فهو يرنو لان يعيش « ما تبقى له من الحياة مستقرا غير ملاحق بايما شيء .. واهم من ذلك .. تحت سقف من اسمنت » (ص٤٢) .. فقد « كان طموحه كله .. كل طموحه ، هو ان يتحرك من بيت الطين الذي يشغله في المخيم من عشر سنوات ويسكن تحت سقف من اسمنت » (ص٤٢) وما يلبث حين تسنح له اول فرصة لتحقيق هذا المطمح ان ينبت عن كل جذوره حتى يعيش للحظات حلمه المرتجى .. سقف الاسمنت... دون ان يفكر بطريقة مروان ، ولا ان تثير في نفسه الاسى مسألة « ان يترك اربعة اطفال .. ان يطلقك انت بلا اي سبب ، ثم يتزوج من تلك المرأة الشوهاء .. هذا امر لن يغفره لنفسه حين يصحو ، ذات يوم ، ويكتشف ما فعل » (ص٤١) .. هذه المسألة لا يمكن ان تشغله باي حال ... فقد تمركز كل همه وتركز في هذا الحلم الواعد بالطمأنينة ... سقف الاسمنت .

مروان لا يقدر قيمة هذا الحلم الملحاح تقديرا مناسبا ،ولا يستطيع ان يفهم تصرف والده ، ولا « ان الرجل يريد ان يستقر في شيخوخته، لا ان يجد نفسه مجبرا على اطعام نصف دزينة من الافواه المفتوحة » (ص٤٢) .. ولذلك فانه ما يلبث ان يصفه بانه « مجرد كلب منحط » (ص٤٠) .. فالتكوين الحضاري للاثنين ـ مروان وابيه ـ شديد التباين، رغم انصهارهما معا في بوتقة مأساة واحدة .. مأساة الضياع الفلسطينية الابعاد .. فاذا كان الاب قد تعب من تحمل المسئولية ونزع الى الراحة تحت سقف الاسمنت حلمه .. فان مروان يضع نفسه ـ دون ادنى محاولة للالتواء او اللامباشرة ـ امام هذا السؤال الدامي الذي طرحه زواج زكريا الهروبي بعد الاب « من الذي سيطعم الافواه ؟ ...ويشتري ملابس مي .. ويحمل الخبز لرياض وسلمى وحسن ؟ .. من ؟ »(ص٤٢) ويكون الجواب الدامي الذي لم ينطقه احد : ان ليس هناك سواه ، ومن ثم عليه ان يترك المدرسة ويذهب هو الاخر الى ... الكويت .. ف « صفق الباب وراءه وسار .. كان ما زال يسمع صوت عكاز شفيقة يقرع البلاط برتابة » (ص٤٨) .. صوت المأساة الملحاح يتعقب كل خطاه .

بعد ان قدم غسان من خلال نماذجه التلخيصية الثلاثة ـ كل على حدة ـ للاجيال التي شربت مرارة النكبة الفلسطينية وتجرعت علقمها، الملامح المتناهية الصغر لهذه المأساة . جمع خيوط نماذجه الثلاثة في مصير واحد .. وامعانا منه في السخرية من ابطاله ، سمى الفصل الذي تشابكت فيه خيوط المأساة لتشكل ابعاد المصير الدامي (الصفقة) ...في هذه الصفقة اتفق ابطاله الثلاثة ـ بعد ان فشل كل منهم على حدة في الاتفاق مع المهرب البصراوي السمين ـ مع ابو الخيزران ، وهو نموذج رابع للنكبة ، ليهرب بهم عبر الحدود الى الكويت .ومأساة ابو الخيزران الصغيرة اكثر عمقا من مآسي النماذج الثلاثة ومن ثم فانه عاجز عن اعتيادها رغم مضي سنوات عشر على مثولها امامه وفيه ، حقيقة راعبة لا حلما ، « مرت سنوات عشر على اليوم الذي اقتلعوا فيه رجولته منه ، ولقد عاش هذا الذل يوما وراء يوم ، وساعة اثر ساعة ، مضغه مع كبريائه ، وافتقد كل لحظة من لحظات هذه السنوات العشر ، ومع ذلك فانه لم يعتد قط ، لم يقبله قط ، عشر سنوات طوال وهو يحاول ان يقبل الامور ، ولكن اية امور ؟ .. ان يعترف ببساطة انه ضيع رجولته في سبيل الوطن ؟ وما النفع ؟ لقد ضاعت رجولته وضاع الوطن وتبا لكل شيء في هذا الكون الملعون » (ص٦٨) .. بل انه قد « احتاج الى وقت طويل حتى يعتاد مجرد الحياة » (ص٦٨) .. وحتى يبتلع تلك الحقيقة الراعبة التي تقول انه فقد رجولته وفقد الوطن ، والتي تعلن عن نفسها في سفور كلما تلولب الالم المرير بين فخذيه ، وهانحن بعد عشر سنوات .. وقد تعب ابو الخيزران كثيرا من هذه الحياة ويريد ان يستريح .. « اقول لك الحقيقة ؟ .. انني اريد مزيدا من النقود .. مزيدا من النقود .. مزيدا من النقود .. ولقد اكتشفت انه من الصعب تجميع ثروة عن طريق التهريب .. اترى هذا المخلوق الحقير الذي هو انا ؟ .. انني امتلك بعض المال .. وبعد عامين ساترك كل شيء واستقر .. اريد ان استريح .. اتمدد .. استلقي في الظل وافكر او لا افكر .. لا اريد ان اتحرك قط .. لقد تعبت في حياتي بشكل اكثر من كاف ! اي والله ، اكثر من كاف » (ص٧٢) .. وتعانق رغبته الملحاحة تلك في الحصول على النقود والتمدد في الظل ، رغبة الاجيال الثلاثة في الوصول الى الفردوس الحلمي المرتجى ، حيث يحصلون هم ايضا على النقود ، ويتمددون في الظل.. « نحن نريد ان نرتزق ، وانت تريد أن ترتزق ، لا بأس ، ولكن يجب ان يكون الامر في منتهى العدل » (ص٥٣) .. واتفقوا بسهولة على تفاصيل (الصفقة) البسيطة الدامية ، ان ينقلهم ابو الخيزران في عربة المياه الضخمة ـ عبر الحدود الى الكويت ـ شريطة ان يسقطوا داخل الخزان الجحيمي الحرارة ـ فقد تمت الرحلة في شهر اب (١٦) ـ لمدة سبع

---

(١٦) لاحظ دلالة اختيار الكاتب لهذا الشهر بالذات ، حيث تكثف حرارته الجحيمية في تلك المنطقة الصحراوية ، كل العذابات المحيطة باجيال النكبة ، وكل ما في واقعهم من ضراوة لاهبة .

ساعات عند كل مركز من مركزي الحدود .. ووافقوا على هذا الشرط، وبدأت الرحلة .

في المرة الاولى تم كل شيء ببساطة ، هبطوا الى داخل الخزان الجحيمي ، ثم خرجوا منه بعد ان اغتسلوا بعرقهم خلال الدقائق الست التي أسفرتها اجراءات اجتياز الحدود العراقية ، بعد ذلك « هدر المحرك ومضت السيارة الكبيرة ترسم في الصحراء خطا من الضباب : يتعالى ثم يذوب في القيظ .. » (ص٨٢) واخذت السيارة تطوي بهم المنطقة الحرجة الفاصلة بين الحدود العراقية والكويتية .. وتداني الامل بصورة رائعة .. و « شق العالم الصغير الموهن طريقه في الصحراء مثل قطرة زيت ثقيلة فوق صفيحة قصدير متوهجة .. كانت الشمس ترتفع فوق رؤوسهم مستديرة متوهجة براقة ، ولم يعد واحد منهم يهتم بتجفيف عرقه » (ص٨٥) .. وبدا الحلم قريبا الى النوال.. وتداني الامل .. وتداني .. بينما تناءت لدرجة كبيرة دهشة مروان الطفلة من ضراوة واقعه .. وغردت فرحة خافتة صغيرة في اعماق ابو قيس .. واستمرت السيارة الضخمة الهائلة ، كالمصير ، تطوي بهم الارض والواقع « كانت السيارة الضخمة تشق الطريق بهم وباحلامهم وعائلاتهم ومطامحهم وبؤسهم ويأسهم وقوتهم وضعفهم وماضيهم ومستقبلهم .. كما لو انها آخذة في نطح باب جبار لقدر جديد مجهول .. وكانت العيون كلها معلقة فوق صفحة ذلك الباب كانها مشدودة اليه بحبال غير مرئية » (ص٨٦) .. وجاءت اللحظة الفاصلة ، لحظة ولوج ابواب الفردوس .. الابواب التي لم تولج ابدا، فظل الفردوس حلما حتى النهاية ، حلما هروبيا لا اكثر . ونزلت الاجيال الثلاثة الى جوف البوتقة التي انصهرت فيها هذه المرة حتى ذابت ، ونسجت الظروف العبثية آخر فصول المأساة ، فتركت الشمس تصب لهيبها القائظ فوق جدران الخزان حتى صهرت الاجيال الثلاثة الهاربة من شمس واقعها الجحيمية اللهيب ، هذه الشمس .. الواقع ..التي ظلت تطاردهم حتى النهاية ولم تترك لهم الفرصة ابدا كي يتمددوا في الظل ويستريحوا .. فعند نقطة المطلاع الثانية ، والتي يعد اجتيازها بالفردوس ، يعطل موظف المطلاع ابو الخيزران لسبب شديد التناقض مع ابعاد ازمته ، اذ يعتقد هذا الموظف السمين الذي توهجت غرائزه شبقا لهذه القصة ، ان ابو الخيزران على علاقة براقصة في البصرة تدعى كوكب ، فيدق بذلك عنيفا على موضع الازمة منه ، ومن ثم لا يوقع اوراق ابو الخيزران الا بعد ان يعطله ربع ساعة ينتزع منه فيها وعدا – يجتر على حسابه حرمانه – بقضاء ليلة مع كوكب .. هذه الربع ساعة العابثة ، كانت كافية لانتزاع الحياة من رفاق ابو الخيزران الثلاثة ، فبعد ان يجتاز ابو الخيزران بعربته المغلقة على ضحاياه لاكثر من عشرين دقيقة ، حدود الواقع لتنهب عجلاتها ارض الفردوس الحلم، يفتح الخزان ليجد ان رفاقه الثلاثة قد ماتوا ، عندئذ « احس ابو الخيزران انه على وشك ان يختنق ، كان جسده قد بدأ ينزف عرقا بشكل مريع حتى بات يشعر انه مدهون بالزيت الثقيل ولم يدر ، اهو يرتجف بسبب اطباق هذا الزيت على صدره وظهره ؟ ام بسبب الرعب ؟ » (ص٩٨) .. غير انه « تحسس طريقه منحنيا الى الفوهة وحين اخرج رأسه منها لم يدر لماذا سقطت في ذهنه صورة وجه مروان دون ان تبرح . لقد احس بالوجه يلبسه من الداخل مثل صورة ترتجف على حائط ، فاخذ يهز رأسه بعنف وهو ينسل من الفوهة فتحرق رأسه شمس لا ترحم » (ص٩٨) . ويمضي بالضحايا الثلاث الى الفردوس الذي عاش في اعماقهم حلما واعدا بالحياة ، ليقبرهم هناك .. ولا ينسى في اللحظات الاخيرة حاجته الى النقود التي ستمكنه ، بعد فترة ، من ان يخلق لنفسه ظلا يقيه هجير الشمس القائظة ، شمس واقعه اللهيبية والشعاع ، فيأخذ نقودهم ، ويدفنهم في الليل بصحراء الكويت .. وفي هذه اللحظة فقط ، لحظة دفن الضحايا ، تلح على عقله فكرة « كبيرة داوية ضخمة لا تتزعزع ولا تتوارى » .. « انزلقت الفكرة من رأسه ثم تدحرجت على لسانه : لماذا لم يدقوا جدران الخزان ؟ ».. « وفجأة بدأت الصحراء كلها تردد الصدى : لماذا لم تدقوا جدران الخزان ؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان ؟ .. لماذا ؟ .. لماذا ؟ .. لماذا ؟ » (ص١٠٦) .

ويلقي هذا السؤال الدامي الاخير ظلالا رمزية كثيفة على كل ما في الرواية من احداث ، فيحيلها الى صرخة احتجاج داوية على الهرب من مواجهة المأساة في مواطنها ، ويشير بعفوية فنانة الى ان طريقهم الحقيقي في الحياة ينحت ملامحه من ضرورة مواجهة الواقع بصلابة وبلا ادنى هروب .. ضرورة ان يدقوا جدران الخزان .

وبهذا تمكنت الرواية في هذا الاطار الفني المركز الخصب من حمل ابعاد النكبة الفلسطينية داخل احداثها .. خلال منولوجاتها الثرية بالدلالات والايحاءات والصور ، وخلال طوفانات الذكرى التي اضاءت لنا خلفية الاحداث وماضي الشخصيات .. وان كنت آخذ عليها هنا ، تلك الهندسة المقصودة والزائدة عن الحد ، التي اكلت عفوية السياق الفني في اكثر من موضع عند استعادة الذكرى على وجه الخصوص ، والتي اسفرت عن وجهها بوضوح اكثر ، عند استعادة ابو الخيزران لذكرى مأساته .

***

اذا كانت (رجال في الشمس) هي طليعة الروايات التي كتبت عن فلسطين من ناحية تكثيفها لابعاد النكبة ، فان (ستة ايام) لحليم بركات تقف هي الاخرى في الطليعة من حيث جودة الصياغة الفنية ، والمزاوجة الواعية العميقة بين ابعاد النكبة ، وبين ابعاد المأساة الحضارية الدامية التي فتتت كيان بلادنا . حيث التقى الوجه الذاتي للمأساة بالوجه الشامل لما في واقعنا العربي من تناقضات .واستطاعت الرواية ان تحمل في اضاعيفها ، الى جانب الازمة المحورية الرئيسية التي تدور حول اعماق النكبة الفلسطينية ، الكثير من الازمات الحضارية التي يرتعش بها وجه واقعنا ويتغضن . كل هذا باسلوب شعري شفاف ، ومن خلال بناء فني محكم ، استطاع الفنان من خلاله ان يهب الاحداث اعماقها ، وان يخرج بالتجربة من اطارها الذاتي الى نطاق اكثر رحابة وشمولا ...

شعر

من منشورات دار الآداب

★★★

		ق.ل
● الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
● وحدي مع الايام	لفدوى طوقان	٣٠٠
● وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
● اعطنا حبا	لفدوى طوقان	٢٥٠
● مدينة بلا قلب	لاحمد ع. حجازي	٢٠٠
● عيناك مهرجان	لشفيق معلوف	٢٠٠
● ابيات ريفية	عبد الباسط الصوفي	٣٠٠
● ابيات مؤرقة	لسليمان العيسى	٣٠٠
● في شمسي دوار	فواز عيد	٢٠٠
● الفجرآت يا عراق	هلال ناجي	٢٠٠
● المشانق والسلام	عدنان الراوي	٢٠٠
● حداء وغناء	خالد الشواف	٢٠٠

تطالعنا الكلمات الاولى في (ستة ايام) بثنائية غريبة « ان تستسلم دير البحر او تمسح من وجه الارض » (ص٩) .. هذه الثنائية الدامية التي يعني شقاها الموت تحكم الرواية طوال الايام الستة التي تدور فيها احداثها .. وامام هذه الثنائية الدامية يضع سهيل ـ بطل الرواية ـ ثنائية اخرى يدس في تضاعيفها البطولة والتحدي والامل « السؤال هو ان نستسلم او نموت . الجواب بسيط جدا : ان نمـوت او ننتصر » (ص١٠) . امام هذا الانذار الراعب القصير المدى ، الـذي يواجهنا منذ الكلمة الاولى في الرواية ، يكشف حليم بركات كل ما فـي واقعنا الحضاري من تناقضات ، ويذهب بها خلال التركيز الشديد في الزمن والاحداث ، الى الدرجة التي تفصح عن كل ما يدور داخلها من دلالات ، فترسم بعمق ووضوح ملامح الازمة الفلسطينية الابعاد .

والازمة المحورية في (ستة ايام) ليست مسألة ازمة الانتماء ـ كما يقول الصديق غالي شكري ـ وان كنا لا ننكر وجودها ضمن اطار الازمات الكثيرة التي تدور داخل الرواية ، ولكنها ازمة ذلك الضيـاع الفلسطيني الابعاد ، المتميز الملامح ، والذي يختلف عن اي ازمة ضيـاع اخرى ، مصرية كانت او اوروبية ، والذي ينحت ملامحه من الظروف النوعية الخاصة بفلسطين .. ان ازمة الانتماء الحقيقية في ادبنـا العربي ، هي ازمة (كمال عبد الجواد) في ثلاثية نجيب محفوظ ، وهي ازمة (سامي) في رواية سهيل ادريس (اصابعنا التي تحترق) .. ولكنها ليست ازمة (سهيل) في (ستة ايام) .. ان كل من كمـال عبد الجواد وسامي تعذبه الرغبة في ان يحقق ذاته .. في ان يكـون اكثر فعالية بالنسبة لواقعه .. في ان يسلك دربا يثق مما يفضـي اليه ... هذه الفرضيات ليست واردة على الاطلاق بالنسبة لسهيل ، لانه ـ رغم توقه الشديد لان يحقق اختياره على الطريقة الاوروبية ـ فاقد تماما لشروط الاختيار الاساسية ... الحرية .. منذ ان وضعه المؤلف من اللحظة الاولى امام هذه الثنائية الدامية الشقين ، امـام انذار الاعداء الذي ينفي وجوده .. « ان تستسلم دير البحر بعـد اسبوع وتعيش بامان ، او تمسح مسحا » (ص١٠) .

وسهيل واحد من الشباب العربي الذي بهرته الحضارة الاوروبية طوال تجواله المتسكع على ارصفتها .. ولكن اعماقه رغم هذا الانبهار تمور حنينا الى الارض التي عاش « مع ترابها وهوائها وظلال اشجارها الوف السنين » (ص١٠) فيعود .. « عاد الى بلده منذ سنة هربا مـن الضجر » (ص١٥) .. « المدن الكبرى المعقدة خلقت منه انسانا ضجـرا يحن الى الاستقرار دون ان يريده » (ص١٥) .. عاد بعد ان شرشـت اعماقه بالحضارة الاوروبية ، يقرع بالحاده دروب القرية .. عاد الـى جذوره ليصدم بعد عودته بثنائية التحدي الدامية التي انتزعته مـن طوفانات ضياعه « لم يعد يتساءل لماذا تتجمع دير البحر على نفسها ، فلا تتمدد على هذه التلة التي يقف عليها الان ، او على الشـاطىء امامه .. نسي ايضا ان يجيب نفسه بان للبلد تاريخا مع الخوف .. خوف من الداخل وخوف من الخارج » (ص١١) ولم تواته الفرصـة لمواصلة مقارناته بين واقع اوروبا الحضاري المتقدم ، وبين ذلك التخلف الحضاري الذي يعبق في سراديب دير البحر .. كل سراديبها .. ويظل ممتلئا « برائحة العطر والعرق ، بالمحبة والانانية ، باليـأس والامل ، لا يقدر ان يضجر او يستقر ، انه في تمزق ابدي » (ص١٣)... تمزق يعكس في ثناياه تمزق دير البحر كلها « تناوبت امواج العدوان على هذه البلدة وتركت فيها انحطاطها . نريد ان نوقف هذه الموجات ، نريد ان نتحدى . لم يعد لنا غير التحدي . لم يعد لنا غير الموت . انه نعمتنا الاخيرة . انه السفينة التي تمخر ضمير الاجيال الاتية » (ص١٤) .. وهو كدير البحر كلها ، لا يفكر بالنصر ، بقدر تفكـيره بان يصهر وجوده ، كل وجوده ، في اتون المعركة حتى « نترك لابنائنـا اسطورة ، اسطورة التحدي والبطولة والاستشهاد ، فيرتفعون بوجودهم نحوها ، هم لا بد ان ينتصروا » (ص١٤) .. هذه هي الحقيقة الكامنة في ضمير سهيل ، وان كان يحس في لحظات كثيرة بان اهل دير البحر « تجار وجهلة وبدائيون ومنحطون وفارغون وعبيد » (ص١٤) ... ولكنه لا يملك سوى توحيد مصيره بمصيرهم ، رغم التناقض المتحدي بـين حياته وحياتهم .. بل وحياة اقرب الناس اليه حياة اسرته .. حياةعمه الذي نذر نفسه للمال ، بينما نذر عمه الاخر نفسه لله ، اما هو فـلا يدري لاي شيء نذر نفسه .

رغم كل هذه التناقضات فان الازمة ما تلبث ان توقظه .. تنتزعه من ترديه المتسكع هذا لتلقي به دفعة واحدة في انونها « كان يتحـدث عن الافكار والعواطف قبل الان .. في هذا الاسبوع سيعيشها فيأروع اعماقها ، لن يراقب عواطف الناس ويقرأ الكتب ، سيعيش تجربة الموت والبطولة والتحدي فتفور الحياة من وجوده بعنف » (ص١٦) ..وتوقظه هذه الصحوة الواقعية على رغبته في ان يصارح ناهدة بحبه « لماذا لا يذهب اليها الان ليصارحها بحبه ، قد يموت في هذا الاسبوع . قـد تموت هي . ليطلق العصفور من قفص صدره فوق البحر ، في المطـر والضباب » (ص١٩) .. اما ناهدة « فقبله اطلقت العصفور مـن صدرها » (ص٢٢) ومن ثم فانه « في هذا الاسبوع لن يعرف الضجر ، غريب ان يواجه الحب والموت معا » (ص٢٤) ... ولكن هناك اكثر من عائق امام هذا الحب .. انه من دين وهي من الدين الاخر ، ومن ثـم فانها فاقدة لحريتها تجاهه ، ثم انها رمز مقدس يريدها الناس ان تكون ما لا يستطيعون هم ان يكونوه ، فهي ابنة الشهيد ابراهيم العامري ، الذي فقدت بطولته ، خلال تقديس الناس الملح لها ، زخمها الانساني ، ومن ثم تحول الى وثن مقدس ، تنسدل اردية قداسته الوثنية على كـل مـن يمت له بصله .. على ابنته بالدرجة الاولى .. ولكن سهيل يتمـرد على كل هذه العوائق بما فيها بطولة والدها الشهيد، والتمردعلىابراهيم العامري ليس تمردا على بطوليته ، بقدر ما هو تمرد على وثنية هـذه البطولة ، فبينما يتمرد على هذه البطولة نجده مثالا للبطل الممتاز حينما يتطلب منه الموقف ذلك ، حتى في اخر الرواية ، حينما انتصـرت الهزيمة .. كان بطلا .. نموذجا حيا للبطل المعاصر .. بكل ما فـي ازمته من ابعاد ، وبكل ما للبطولة المعاصرة من ملامح .

وقد استطاع سهيل ان يدفن في صدر ناهدة ، التي توحد حبـه لها بتحديه وتمرده وضياعه ، كافة ابعاد ازمته الحضارية التي لم يجد لها مستقرا في احضان لمياء ... فجذور ازمته ترتوي من ازمة ديـر البحر .. ولمياء « تكره ان يقال انها من دير البحر ، فتحبس نفسهـا في البيت تصغي لفائز وشوبان وارمسترونج » (ص١٢) ... كما انها تسد بذلك النموذج الاوروبي المتخم ثقافة وخبرة وضجرا .. والذي اضجر سهيل فهرب منه الى ناهدة .. الارض والتحدي والبطولة .. الطزاجة والعفوية والطفولة .. والتي جاء حبه لها ضمن الاطار العام لتمرده وقلقه ورغبته في العودة الى جذوره .. الى دير البحر .

التقت الازمتان في بوتقة الحب والجنس وانصهرتا تماما ... ازمة سهيل الباحث عن نفسه وعن دير بحره .. وازمة ناهدة المعتقة فيأقبية الحرمان المثقلة بوثنية قداستها .. ومن ثم انطلق كل منهما ليقوم بدوره كاملا في اتون الانصهار الكبير الذي تحولت فيه دير البحر الى رمـاد.

بعد سهيل يجيء فريد ، الشخصية الوثوقية ، ليقدم مفهومـه للمأساة من خلال معايشته الخصوصية لها .. انه « يحس ان كلنقطة من دمه هي لدير البحر ، فتهدر في وجوده عاصفة من المحبة لترابهـا والبغض لاعدائها » (ص١٢) وهو لا يستطيع الا ان يكون « مؤمنا متعصبا حماسيا مصمما عنيفا جماعيا » (ص٢٧) فيقدم بذلـك الجانب المناقض تماما لشخصية سهيل .. البطل الرئيسي الذي تريد الرواية ان تقدم من خلاله كل مقولاتها ، والتي تجيء كل الشخصيات معمقة له وموضحة لكل ابعاده .. بهذا الفهم يمكننا ان نبتلع كثيرا من الاحداث التـي تغيم فيها فردية الشخصيات الاخرى ، حيث هم المؤلف الرئيسي ان يشدنا الى شخصيته الرئيسية سهيل .. ولهذا فانه يقدم من خـلال فريد ، الجانب الذي يفتقده سهيل ويرفضه في آن .. ان يكون وثوقيا عنيفا جماعيا متعصبا .. ان سهيل يرفض هذا الموقف ومن ثم يرفض الكثير من اراء فريد وتصرفاته وفهمه للاشياء والمواقف ... سهيـل يصهر كل الاشياء في بوتقة شكه ومن ثم تخرج الحقيقة من هذهالبوتقة

اكثر صلابة منها عند فريد .. رغم الرداء الوثوقي الذي تتسربل بها عنده ، ورغم المسوح الشكية التي ترتديها عند سهيل . ولهذا تجيء حرب فريد المشوقة لمعانقة النصر ، موضحة لابعاد حرب سهيل التي ليست اكثر من حرب من لا يستطيع ان يهرب « انت تحارب امـلا بالانتصار ، اما انا فاحارب لانني لا استطيع أن اهرب » (ص٤٣)... ان سهيل يندفع في الحرب دونما امل في النصر .. ليس لعدميته او لساديته ، ولكن لاعتقاده بان الحرب قدره .. حريته .. ومن ثم فانه يوبخ نفسه بعنف عندما تنوش فكرة الهرب ـ تحت وطأة الام التعذيب ـ عقلـه .

كما يجسد حليم بركات من خلال شخصية فريد الوثوقية ، كافة معايب هذا النمط السلوكي واهماله لاعداء الداخل ، اذ يركز فريد كل اهتمامه في خطابية زاعقة على اعداء الخارج ، مهملا تمام الاهمال كل اعداء الداخل ، بينما يعي سهيل جيدا هذه الحقيقة « هنا المشكلة .. دائما نهرب .. دائما نبرر الهدنة التي اقمناها مع الاعداء في الداخل » (ص٥٠) .. ولان فريد لا يرى بوضوح هؤلاء الاعداء ، فانه ما يلبث ان يقع بسهولة في براثن عبد الجليل ... الوشاية والسرقة واللامبدأ.. الخيانة الواثقة بنفسها ، المطنطنة بكلمات جوفاء« الهرب يدعو الهرب» بينما يقف سهيل في مواجهته منذ اللحظة الاولى ، ويوضح موقفـه ملامح الازمة الفلسطينية الابعاد ، بينما هم فريد ان يعلن بوثوقيـة وغباء انتماءه في مقابل بحث سهيل الدائب عن حقيقة ينتمي اليها .. نفس البحث الطويل الملتاع الذي مزق ماتيو (١٧) من قبل ... و « من اجل ان يكون صادقا مع نفسه كفر بمعظم ما يؤمن به الناس . الصدق كان ملجأه الوحيد . وفي برهة ادرك انه بلا ملجأ » (ص١٠٥) ...ولكن كل عذابات اللامنتمي هذه ما تلبث ـ كما حدث لماتيو تماما ـ ان تنصهر في بوتقة المعركة ، فتفوق مغامراته الشجاعة ، وصموده الرائع ، كل ما قدم رفاقه من بطولات .. ويصمد في صميمية نادرة امام كل صنوف العذاب التي يذيقها له الاعداء حتى ينتزعوا منه سره .. او بمعنى اكثر دقة .. حريته .. هنا يلوح لنا سهيل الباحث طوال الايام الثلاثة الاولى عن قيمة ينتمي اليها ـ في عالم ليس بلا قيم كما يدمغ كـولن ولسون العالم الغربي ، ولكنه عالم مكتظ بالقيم الجرانيتية العفنة ـ.. المتحدي لكل شيء .. الكافر بكل اله .. منتميا تماما . اذ يجد نفسه ملتزما بموقف تفدمي من الحياة خلال فردية التزامه بحريته . ولما لم تحدث طوال الايام الثلاثة الاولى اي حادثة جوهرية تؤكد انتماءسهيل او تنفيه ، فان سهيل يكون منتميا من البداية ، ومن غير معان لازمـة الانتماء بالمرة .. وان كان يبدو خلال فراغه وتحديه لكافة جزئيات عالمه المتهرىء القيم ، يعاني من ازمة انتماء مريرة .

وقد كان وعي حليم بركات بهذه الحقيقة رائعا ، ومن ثم استطاع ان يصهر ازمة بطله الذاتية في اتون الظروف المجتمعية المتحدية تلك. فالازمة المحورية التي يدور في فلكها سهيل تبدو من خلال تلك الهـوة الكبيرة الممتدة بين تصوره الفكري للواقع ، او بالاحرى للشـروط الانسانية .. الحد الادنى من الشروط الانسانية .. التي يجب توفرها في هذا الواقع ، حتى يمكنه ان يحقق فيه كينونته ، وبين الشروط الواقعية الضارية التي يعبق التخلف الحضاري في سراديبها والتـي استلت كل الشروط الانسانية من جوف هذا الواقع .. تلك الهـوة الكبيرة الفاغرة فاها لابتلاعه ، هي السبب في ذلك التمزق امام شتى صنعوف التعذيب عندما وقع فـي ايدي الاعداء اثناء اجتيازه الحدود الى الدولة الشقيقة التي يعتقد هو ورفاقه ان عندها الخلاص . وان كانت الساعة في هذه الدولة متوقفة هي الاخرى عن المسير .. تماما كساعة الميدان في دير البحر « عبر الساحة العامة ، عقربا السـاعة الكبيرة لا يتحركان » (ص٢٥) .. ولعدم تحركهما دلالة رمزية متخمة بالثراء .. يفصح عنها ذلك المونولوج الداخلي « كيف يواجهون الاعداء؟ .. بالبندقية العتيقة والمسدس والخنجر والوهم الخرافي في الرؤوس والساعة المتوقفة عن المسير ؟ » (ص١٣) .. ومن هنا تكسب الحادثة كل ابعادها الدرامية النابعة من فهم الكاتب العميق لضراوة ودمويـة الاسلحة الفاسدة والذي يختلف كثيرا عن ذلك الفهم الزاعق المبتسر الذي قدمهيوسف السباعي . لان حليم بركات اعطى الحدث هنـا امتداداته الرمزية من خلال ربطه بالساعة المتوقفة عـن المسير ، واللحظة المتوهجة الدامية .

وحتى نتعرف على كافة ملامح النكبة الفلسطينية الابعاد في (ستة ايام) يلزمنا ان ندرس الامتدادات العميقة لشخصية ناهدة (١٨) تلـك الشخصية الثرية بالرموز ، الملخصة لواقع الفتاة العربية ، والتيتعمق بتوازيها مع شخصية سهيل ابعاد النكبة الفلسطينية وتفضح كل ما في اعماقها من تخلف حضاري ، ومن قيم شائهة جديية خلال رغبتها العارمة في الثورة على كل ما في ذلك العالم العنكبوتي القيم .. ليست الثورة العميقة الواضحة الابعاد ، ولكن مجرد الثورة الدون كيشوتية التـي تشعرها بكينونتها « انا بحاجة الى فضيحة . اريد ان اتحدى كلهؤلاء الناس ، اكره العناكب .. اكرهها » (ص١٢٤) .. ان التحدي المصمت الخالي من كل مخطط هو رائد ناهدة للتخلص من قيود عالمها العنكبوتي القيم « عالمها ضيق . جدران سميكة تشرنقها . صور ابيها المعلقة على الجدران تشرف عليها اينما جلست . الناس يريدونها ان تكون قديسة لان اباها عرف كيف يموت من اجل بلاده ويستولي على مشاعر الناس. اصبح في نظرهم رمزا للبطولة والتضحية والرصانة واشياء اخرى لم تخطر بباله . لا تستطيع ان تؤمن بما يريدونها ان تؤمن به . حاولت ولكنها فشلت . ليس بامكانها ان تكون قديسة » (ص١١٧) .. ومنهذا التناقض بين عدم قدرتها على ان تكون قديسة ، وبين اردية القداسة التي يسبلها عليها الناس ويطالبونها بارتدائها ، بتلبسها من الـداخل ولدت الرغبة في التمرد ، واستطاعت هذه الرغبة ان تتعدى هذهالحدود الشاحبة ، اذ ان التمرد على هذه القيمة جاء ضمن اطار التحـدي الكبير لكل القيم الحضارية المتخلفة التي تعيشها هي وسهيل ...ولهذا فان رغبتها الصميمية في التحدي تلك تدفعها في متاهات التخبط في كثير من الاحيان « اننا نتخبط . لذلك نقول احيانا ما لا نريده . نحن غرقى . نتخبط بعصبية وتشنج » (ص١٥٩) . ذلك لان هذا التحـدي ليس عميق الجذور كتحدي سهيل مثلا ، او كتحدي سعيد مهـران للكلاب في رائعة نجيب محفوظ (اللص والكلاب) . اذ املاه علىناهدة

(١٧) بطل رباعية سارتر ، دروب الحرية .

(١٨) لاحظ الدلالات الثرية التي يوحي بها هذا الاسم .. الرمز.

دراسات في

الواقع المصري المعـاصر

تأليف لطفي الخولي

منشورات دار الطليعة ـ بيروت ص. ب ١٨١٣

بالدرجة الاولى شعورها الغريزي بالحرمان .. نداء جسدها النابع بالرغبة الى رجل في عالم ينظر كل رجاله اليها من خلال ستار من القداسة الوهمية . لذلك فانها ما تلبث ان تقع ثمرة ناضجة في يدي اول رجل ينظر اليها كأنثى ويجردها منعباءة القداسة الوثنية التي البسها اياها الجميع دون رغبتها ، تقع في يده رغم انها تعي جيدا انه من الدين الاخر ، وتدفن في صدره كل حرمانها المتقفي اقبية التقاليد والقداسة « اقتربت من فمه متحدية تراث شعب بكامله . تنجذب اليه بكل ما في اعماقها من لهفة للحياة . عالم من الفرح والالم والنشوة والحنان والاطمئنان . تنبع بصدق من دنيا مفمورة فيصدرها» (ص١٤٨) .. ومن خلال هذا الحب تعثر ناهدة على وجهها الحقيقي ، تملك ناصية قوتها ، تستطيع ان تتصرف ككائن منفصل له كينونته ، هذا الحب فقط هو الذي تمكن من ان يحقق لها رغبتها المتناعة « ارجوك ان تفهمي . حياتي لي . اريد ان احياها . اريد ان احياها انا » (ص١٢٥) .. لقد سئمت تماما ان يحيا الناس لها حياتها .. قد تكون هذه نكتة سخيفة ، ولكنها الواقع المرير الذي يمزق ناهدة والفتاة العربية في عالمنا العنكبوتي الفيم .. الجرانيتي التقاليد .. انناهدة تريد ان تعيش تجربة التحدي تلك ،ولكنها خائفة ،ربما لجدة التجربة ، وربما لاي شيء اخر ، ومن ثم فانها تطلب توكيدا من سهيل بمشروعية التجربة حتى يمضي فيها لاخرها . ومن هنا يبدو الحب في اطار عالمنا الجرانيتي التقاليد ، كطاقة سحرية تطل منها الفتاة على العالم..على وجودها .. وليس في هذه المسألة ادنى افتعال .. ذلك لان الحب يكتسب وجهه هذا ضمن الاطار المجتمعي العام الذي يعتبره شيئا شاذا ومحرما . ولذا تمنح الرواية هذه العلاقة عمقا وشمولا يمتدان بها الى كافة النشاطات المجتمعية الاخرى . ومن ثم تلتحم في النهاية بكل ما في واقع دير البحر من تناقضات ، فترسم لنا ببراعة كافة ملامح وجهها الحقيقي الدامي .

كل هذه الابعاد ترسم لنا بوضوح ملامح النكبة الفلسطينيةالمتميزة، وتموضعها داخل الاطار الحضاري للواقع العربي كله . من خلال تزاوج ازمات شخصيات الرواية . سهيل وفريد وناهدة وليليان ولمياء وعبد الجليل وخالد . لتشكل الوان اللوحة العامة للنكبة الفلسطينية الابعاد . تلك اللوحة التي يشكل التحدي مع الرغبة المتناعة لابناء الارض السليبة في ان يحققوا كينونتهم ، لونيها الرئيسيين .. « لم يعد من امل في انقاذ دير البحر . لم يعد من امل بايقاف جيش الاعداء الجرادي . رغم ذلك لن ينسحبوا . لا شيء سوى ان يثبتوا وجودهم » (ص٢٢٣) ..وقد افلحوا في ان يزيحوا عن وجه هذا الوجود كل قناعات الزيف وان يخرجوا من تحت ركام العبث والضياع المنصهرين في جوف المعركة ، صلبا وواضحا وكثيفا . وان يؤكدوا ان ساعة دير البحر المتوقفة عن المسير ستسير حتما ، ما دام ابناء دير البحر قد استطاعوا بحق ان يثبتوا وجودهم وجدارتهم في ان يحيوا في عالم تسير ساعته .

وفي النهاية احب ان اسجل لحليم بركات مهارته التكنيكية الفائقة التي اعلنت عن نفسها خلال البناء الروائي المحكم الذي استخدم فيه الكاتب بمهارة وحساسية نادرين كل الادوات الفنية التي استعملها من منولوج وحوار وتذكر واستعمال اكثر من ضمير – دفعة واحدة – في عملية القص الروائي . ولا استطيع مع كل ذلك الا ان اسجل دهشتي الشديدة لاكتشاف مثل هذه الرواية الناضجة شعرا وشفافية في ادبنا العربي .

★★★

من هذا الحديث عن الروايات التي صدرت عن فلسطين ، يمكننا ان نرى ان الروايات التي توفر لكاتبيها – كروايتي حليم بركات وغسان كنفاني – معرفة نوعية عميقة بابعاد النكبة الفلسطينية وقدرة موهوبة فنانة على معالجة الموضوع ، قد استطاعت ان تحمل لنا بجانب ابعاد النكبة الفلسطينية ، دلالات انسانية عامة خرجت بها من محدودية التجربة الفردية الى افاق اكثر شمولية ورحابة . واستطاعت ان تجسد من خلال معاقرة الكاتب الواعية لتجربته ، رؤيته لكافة قضايا الانسان العربي المعاصرة . فتمكنت رواية حليم بركات من ان تعري لنا ابعاد التخلف الحضاري الذي يعبق في سراديب مجتمعاتنا من خلال ذلك التناقض الواعي الذي قدمته بين فكرة بطلها عن الواقع ، وبين هذا الواقع ذاته . بينما لخصت رواية غسان كنفاني رؤية كاتبها لعبثية فكرة النجاة الفردية من اطار المأساة ، تلك الفكرة التي اغناها كامو فلسفيا خلال محاولة الصحفي رامبير بالهرب من مأساة البلدة – في روايته (الطاعون) ، وان كان غسان قد سيج فكرته هنا باطار قومي صرف ، ذهب بالتجربة الى كل مواقع المأساة في مجتمعنا ، واعطاها ، من خلال الطاقات الرمزية التي اثرى بها احداثه ، وجهها الشمولي الرحيب .

ومع كل هذا فاننا نسجل باسى ان الطرح الروائي للنكبة الفلسطينية ما زال نادرا .. وما زالت هناك جوانب عديدة للمأساة تستلزم المعالجة .

القاهرة — صبري حافظ

ليلة الزفاف

– تتمة المنشور على الصفحة ٤ –

عيني وركضت نحو باب الفرج . كان عدد كبير من الناس مجتمعين هناك ويقولون لبعضهم البعض بغضب : حلب ايدت الانفصال . فصحت وانا اشعر كأن خنجرا يطعنني في صدري : باطل . ثم لا ادري كيف وجدت نفسي وانا اهتف : يسقط الانفصال . فردد معي الناس : يسقط يسقط يسقط ، فمشيت امامهم : عاشت الوحدة ، تعيش تعيش تعيش ، فمشيت امامهم : الموت للخونة ، ارواحنا فدى الوحدة . فركضت امامهم : الى الاذاعة يا شباب ، الى الاذاعة ، لنحتلها ولو قتلوا منا مئة ، ونعلن ان حلب تؤيد الوحدة . فسرعان ما وصل مئة شرطي بالسيارات ، ونزلوا امامنا . تشاجرت معهم ؟ نعم تشاجرت لكنني لم اكن سكرانا لا والله العظيم . ضربوني ، نعم وضربتهم ، فلماذا انهم ارادوا ان يفرقوا الشعب الذي يدافع عن الوحدة ؟ امسكوا بي ، نعم ، امسكوا بي واخذوني الى النظارة وظلوا يضربونني حتى الصباح ثم ارسلوني الى السجن ، نعم ، شهرا كاملا ، وهانذا خرجت ، لكن كيف يخرج جميل نحاس من القبر الذي دفنوه فيه يا امي ، كيف ؟ وتأتين بعد ذلك وتقولين لي : متى تتزوج يا احمد ؟ فكيف اتزوج كيف ؟ كيف اترك الطبال ابا علوان يدق طبله في حارتنا وترتفع في الليل انغام المزامير ، والدنيا كلها : حزن وذل وعار ؟ كيف البس القنباز الابيض والف عليه الشال العجمي ورفاقي يلفهم اهلهم بالاكفان كل يوم ويحملونهم الى الجبانة ؟ لا يا امي، مستحيل . انا لن اتركك تزغردين في الحارة . لن اترك احدا ينصب التخت في دار جارنا بشير ناعورة او يصف عشرة من الكراسي فيباحتها واحدا الى جانب الاخر . ابدا لن يدخل الفرح الى بيتنا في هذه الايام السوداء ، ابدا . فاذهبي ، قومي وتغطي بالملحفة ، واذهبي الى بيت العروس وقولي لامها وابيها ولكل من يسألك من اهل الحارة : ان احمد ابن حسن بطل ، لا يتزوج ابدا ، ولا يفرح ، الا بعد ان تعود الوحدة .

— • —

يومها تكون الفرحة الكبرى . وندق الطبول في كل بيت . ويرقص الشباب في كل شارع بالسيف والترس. وتزغرد النسوان من فوق كل سطح . فان كنت انا حيا يومها ، اقول لاولاد الحارة : قوموا ودقوا الطبل في بيتي يا شباب . وتدعين انت يا امي ، صديقاتك والجارات والاقارب لحفلة الزفاف . يومها تقيمون ، انتم ، هنا ، فرحتكم الصغرى، وتزغردين ما شئت ان تزغردي وتذهبين مع عمتي واخواتي لاحضار عيوش من بيت اهلها . والبس ، انا ، القنباز الابيض والف الشال العجمي ، واذهب الى الجبانة ، فاجلس عند قبر جميل نحاس واستأذنه يا جميل نحاس ، يا ولد ، يا اشقر ، انا اعلم انك اليوم فرحان كثيرا ، فهل تأذن لي ان اعود الىالبيت وافرح مع امي وعمتي واخواتي ، قليلا من الوقت ، هل تأذن لي يا جميل نحاس . ؟

اديب نحوي